الحانة حافلة بمعدات الملاذ ومشتملة اسباب اللهو والطرب والمسكرات على انواعها تراق مشعشعة في الكؤوس وحبابها يموج لعيون شاربيها كالاقمار والشموس واصوات المغنين ونغمات آلات العازفين وضجيج المدمنين وعربدة السكيرين ورنين الكؤوس والاقداح وهتاف المسرات والافراح . هذا كلهُ يخيل اليك انك تراهُ او تسمعهُ فتخجل جدًّا من عجزك عن التصدر في ذلك المكان وقد يستحوذ عليك الحزن والاسف لانك لا تستطيع الانخراط في سلك معاقري بنت الحان او لان الدوار يأخذك من مجرد رشف كأس واحدة ويحول دون مباراتك لغيرك في هذا الميدان . ولكن اولئك الذين رأيتهم يتعاطون المسكرات وربما حسدتهم على نهب الافراح واختلاس المسرات اسأل عنهم الآن — الآن بعد ما اصبحوا في هبوط اخاديد الهلاك ومهاوي المخاطر واصبحت طريقهم كلها مزالق ومعاثر فترى كيف استحال عليهم الحال وقد اشرفوا كلهم على الخبال والوبال — اسأل عنهم الجمعيات الخيرية والمتصدقات والمستشفيات وبيوت المجانين والسجون والمشانق فهناك ترى منهم الذين نجوا من الموت احياء في صورة اموات وقد تبدلت افراحهم اتراحًا وحبورًا وصحتهم سقمًا وتعقلهم جنونًا واستحالت حلاوة الكاس افسنتينًا ولذتها زقومًا وغسلينًا 　اسعد داغر

محصول القطن المصري عشرة ملايين قنطار

(تابع ما قبلهُ)

الى هنا كان كلامنا في الحياض القديمة في الوجه البحري التي كانت تروى ري الحياض في القرن السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر فلنلتفت الآن الى ما بعدها شمالاً حيث كانت مياه فروع النيل او الترع الطبيعية تفيض على الارض فيرسب منها الطمي ويعلو المنخفضات التي بين تلك الفروع رويدًا رويدًا ويحصر وجود الرمل في ضفافها . في تلك المنخفضات المعروفة الآن بالبراري مليون فدان من الاطيان فيها شيء من الملوحة وكلها قابلة لان تصلح بالري والصرف حيث يكون الصرف ممكنًا وتجزأ الى اجزاء صغيرة وتعطى للفلاحين يعيشون منها ويتركونها لاولادهم . ولا بدَّ من عمل المصارف الكافية في هذه الاراضي حتى لا تعود تتلف وتملح بسرعة

اذا كان لواحد الف فدان فلا يهمهُ تلف مئة فدان منها اذا بقيت التسع مئة الفدان صالحة للزراعة اما الفلاحون الصغار فلا يمكنهم ان يتهاونوا بتلف اطيانهم والاطيان التي

يعيشون منها و يدفعون ضرائبها لا بدّ من ان تكون جيدة الصرف

واود ان يُنتبه الى ما يأتي الانتباه التام · ان الذين يعترضون على مصارف الحكومة قد غضّوا الطرف عن المصارف الكبيرة المفيدة التي عملتها الحكومة · رأوا عدم كفاءة المصارف الصغيرة فقاسوا المصارف الكبيرة عليها · ان الانحدار الطبيعي في الوجه البحري قليل جدًّا الى ان تصل الى البحيرات ما عدا بحيرة مريوط التي انحدارها اكثر من غيرها · لكن قلة الانحدار هذه يقوم مقامها اتساع المصارف الكبيرة وعمقها اما المصارف الصغيرة فغير عميقة وانحدارها غير كافٍ اذا كان الانحدار مترًا في كل عشرين كيلو مترًا فهو كافٍ في المصارف العميقة الواسعة · اما المصارف الثانوية فلا يصح ان يكون انحدارها اقل من متر في كل اربعة كيلو مترات والمصارف الصغيرة جدًّا لا يصح ان يكون انحدارها اقل من مترين - ولما كان هذا الانحدار غير موجود بطبيعة الارض وجب ان يعتاض عنهُ بالآلات الرافعة التي تنزح مياه المصارف وهذا لم تفعلهُ الحكومة حتى الآن الاّ في بحيرة مريوط ولكن احد رجال العصر المعدودين ينظر الآن في هذه المسألة بعين الاهتمام

ولا يمكن ان تصلح الارض الاّ اذا امكن تجفيفها الى عمق ٦٠ سنتيمترًا وهذا التجفيف لا يتم الاّ اذا صرفت على عمق متر اي اذا كان سطحها مرتفعًا عن سطح مياه مصرفها مترًا على الاقل او مرتفعًا مترين ونصف متر عن طرف مصرف الحكومة حيث توضع فيهِ الآلة الرافعة · فاذا قسمت الاطيان المشار اليها آنفًا الى اقسام كل قسم منها عشرة آلاف فدان وحفر مصرف في وسطهِ وركبت آلة رافعة لكل قسم بلغنا الغاية التي نسعى اليها فان الاطيان التي تصرف كذلك لا تطبّل بل تسهل قسمتها الى اجزاء صغيرة من غير ضرر

كان المرحوم الكولونل روص من اشد الناس اهتمامًا بامر الري وكان يقول دائمًا ان اكبر بلية تبلى بها اطيان القطر المصري هي حرمانها من المياه الحمراء · والسبيل الوحيد لجلب مياه الفيضان الحمراء الى الاطيان التي فيها بحثنا الآن هو ان تنصب اليها مياه الفيضان من الترع الكبيرة حتى يرسب الطمي فيها ومتى انخفض النيل وانخفض الماء في تلك الترع تحلّبت اليها مياه الصرف من الاطيان ولم تصعد الاملاح الى وجه الارض فتكون هذه الترع مجاري لمياه الفيضان ومياه الصرف

ويجب ان يكون في طرف كل ترعة حيث تصل بالمصرف العمومي قنطرة موازنة تقفل جزئيًا وقت الري وتفتح تمامًا في غير وقت الري و بذلك يضمن وجود المياه الحمراء لكل

الاطيان وتبقى مياه المصارف الثانوية والمعارف الصغرى واطئة بواسطة نزحها بالآلات الرافعة فتصير الاطيان من اجود ما يكون في وادي النيل وتعود الى ما كانت عليه حينما كانت تسمى بالارض الزعفران او الارض المختارة اي حينما كانت اطيان الوجه البحري كلها من القاهرة الى البحيرات سلسلة من الحياض وكانت تلك الارض مغطاة بالنخيل والكروم وكانت يمكن ريها ريًّا صيفيًّا حتى في عهد الحياض لان الفرق قليل هناك بين ارتفاع مياه النيل في زمن الفيضان وزمن التحاريق ولذلك يسهل ريها على مدار السنة · والارض المشابهة لها في وادي الفرات هي الارض التي بلغ فيها نجاح الزراعة اشدَّهُ حتى عدَّها العرب من جنان الارض الاربع والثلاث الباقيات شيراز وسمرقند ودمشق · والآن ترى في الجهات السفلى من وادي الفرات سهولاً فسيحة يغطيها النخيل (ويقال ان في البصرة عشرة ملايين نخلة) وهو باسق من حقول البرسيم الحجازي النضرة تصل بينهُ قلائد الكروم وقد تدلَّت منها عناقيد العنب خمرية اللون كالرحيق كما كانت لما وصفها شاعر الكلدان القائل

واعناب بأزدو كالرحيق   مدلاَّة على روض انيق

قلت ان المصارف العمومية يجب ان تكون في المنخفضات التي بين فروع النيل او الترع الطبيعية · واكثر مصارفنا الآن كذلك · ولكن لما كانت مصلحة الري في الزمن السابق واقفة تلقاء ترع يصعب التحكم فيها تطغو مياهها على اطرافها في زمن الفيضان والمال المقطوع لها لا يسمح بتعميق اطراف الترع ولا بحفر المصارف العمومية الواسعة دعاها الاقتصاد الى تحويل كثير من الترع الى مصارف وتقليل المياه التي تجري في بقية الترع · ولكن الزمان اظهر عيوب هذا الاسلوب فالحكمة تقضي بالرجوع الى الاسلوب الطبيعي وهو احسن اسلوب · وخير لنا ان تكون الطبيعة مساعدة لنا لا مقاومة لانك اذا طردتها من الباب دخلت من الشباك كما يقول المثل اللاتيني · والواقع ان كل فروع النيل الطبيعية التي جُعلت مصارف ووسعت كثيراً وعمقت تصلح لجري المياه الحمراء مياه الفيضان فيستفاد من الاموال الطائلة التي انفقت عليها · وما من امر ضارٍّ الاَّ ولهُ وجه نافع اذا عرف الناس كيف يستخرجون النفع من الضرر كما قال شكسبير وهذا يصدق بنوع خاص على الترع التي في اواسط الوجه البحري فانها تكفي الآن لمياه اللازمة لري الاطيان التي تمرُّ تلك الترع فيها ولجزء صغير من الاطيان التي عند اطرافها · وحينما تزيد المياه الآتية من اعالي النيل وتصلح الاراضي الواطئة التي قرب البحيرات تدعو الحال الى توسيع هذه الترع لكي تكفي لما يزيد من المياه فاذا عُمقت

التعميق الواجب حتى تكفي لكل المياه اللازمة للري بازاحة بحيث تفتح اسبوعاً وتقفل اسبوعاً تعود تلك الارض الى خصبها السابق وتصير تروى وتصرف بالترع الواحدة ويخفض منسوب المياه في فصل الربيع انخفاضاً كافياً لخصب الارض وجني الحاصيل الكبيرة منها

من الاساليب ما يظهر في اول الامر انهُ يوصل الى الغاية المطلوبة باسهل الطرق واقلها نفقة ولكن يثبت بعد حين انهُ غير صالح ويجب العدول عنهُ . وهذا الامر لا يخفى عليَّ بعد ان اقمت في خدمة الحكومة المصرية سنين كثيرة حينما كان الاقتصاد الشديد رائدها وقبل خلاصها بيد لورد كرومر من العسر المالي . وهو شأن كل الاعمال التي لا ينظر فيها الى غايتها البعيدة . فقد نتج عن اعمال الري نتائج حسنة جدًّا تفوق ما قُدّر لها فتغنّى كل احد بمدحها لكن الذين انتفعوا رأوا بعد حين ان النفع غير دائم والذين لم ينتفعوا واظبوا على الشكوى كلما وجدوا من يسمع لشكواهم . ولم يكن الا قليل حتى انقلب الجميع من المدح الى الذم ومن الشكر الى الشكوى فغالوا في الذم كما غالوا في المدح . ولا بدَّ من تكرار ذلك ما لم تعمل اعمال ينظر فيها الى بعيد وتكون مطابقة لقواعد العلم الصحيح

والآن يمكننا ان نعود الى ايام الخصب التي رأيناها سنة ١٨٩٠ و ١٩٠٠ ونجني من ١٦٠٠٠٠٠ فدان في الوجه البحري ٩٠٠٠٠٠٠ قنطار من القطن ونجني من الوجه القبلي مليون قنطار فيصير محصول القطن المصري عشرة ملايين قنطار كما قلت سنة ١٩٠٢ وذلك اذا جارينا الطبيعة وجعلنا الترع في الاماكن العالية والمصارف في الاماكن الواطئة واجرينا مياه الفيضان حتى تغمر الاطيان كلها وابقينا منسوب المياه واطئاً في فصل الربيع بالري المحكم في الجهات القبلية وبالصرف المحكم في الجهات البحرية واجرينا مياه الخزان الى الاطيان التي يراد احياؤُها في الوجه البحري وابقينا الاطيان المزروعة قطناً حارَّة جافة مدة الصيف حسبما تؤذن به حالة الفصل وجاء الفيضان في ميعاده واحواله العادية . وعندنا الآن ما يساعدنا على ذلك وهو مصلحة الزراعة المتصلة بمصلحة الري وهما تشتغلان تحت نظر صاحب السعادة اسمعيل باشا سري المعروف باختباره الواسع في امور الري وفي الزراعة العملية

واختم هذه الخطبة بالاشارة الى ما أشير اليه دائماً وهو انهُ يجب منع ما يحتمل وقوعهُ من الغرق وتلف محصول القطن . فان كل الثروة التي وصلنا اليها والتي نأمل ان نصل اليها معرَّضة للتلف باول فيضان كبير مثل فيضان سنة ١٨٧٨ . ونحن لدى فيضان مثل هذا

تحت رحمة الله كما يقول الفلاحون اذا انتشرت الدودة في اقطانهم · فان خزان اصوان والقناطر الخيرية جعلا الوجه القبلي والوجه البحري بمأمن من الشرق ولكن لم يعمل شيء حتى الآن لحفظ البلاد من الغرق · ان الاساس الذي بنيت عليه مشروع ري العراق هو ايجاد متصرف لفيضان الفرات ولما وضعت مشروع خزان اصوان لم انسَ ان افصل مسألة ايجاد المياه للري الصيفي عن مسألة حفظ الاطيان المروية من الغرق · ولقد كان حفظ جسور النيل منوطاً بي سنة ١٨٨٧ و ١٨٩٢ و ١٨٩٤ فلا يمكنني ان انسى الخطر الذي يحدق بالبلاد اذا كان الفيضان عالياً · ولم نرَ حتى الآن فيضاناً مثل فيضان سنة ١٨٧٤ وسنة ١٨٧٨

ان ملوك الدولة الثانية عشرة من الدول المصرية القديمة انشأوا مهرباً لمياه الفيضان الى بحيرة مورس ليقوا البلاد من الغرق · والبلاد الآن اغنى مما كانت في عصرهم وغناها اشد تعرضاً لخطر الغرق من غناهم · كانت مدنهم وقراهم مبنية على المرتفعات والمياه تنبسط في الحياض تحتها ومع ذلك رأوا انهُ يجب عليهم ان يقوا بساتينهم وبيوتهم التي في الغيطان من شر الغرق · والآن نرى المدن والقرى مبنية في الاراضي المنبسطة تحيط بها غيطان القطن والذرة ويأتي الفيضان حينما يكون محصولها فيها وقبل ان يجنى والواقي الحقيقي لكل جسر من جسري النيل هو وجود ثغرة في الجسر المقابل لهُ

اذا جعل وادي الريان مهرباً لما يزيد من مياه الفيضان بالنفقة المتقدرة لهُ وهي خمسة ملايين من الجنيهات وقي محصول القطن من ضرر الفيضان الباكر جداً ووقي كل الوجه البحري من الفيضان العالي جداً (١) · واذا اقيم في البحر الابيض سدان الواحد عند ام درمان والآخر عند شجرة غوردون قصرا زمان كل فيضان طويل المدة ولاسيما اذا كان عالياً جداً · ولا تزيد نفقة اقامتهما على ١٥٠٠٠٠٠ جنيه فيتحقق ان يوقى القطن المصري من الغرق بمبلغ ستة ملايين ونصف من الجنيهات

(١) [المقتطف] ولكن يجب ان تحول المياه من وادي الريان الى مديرية الفيوم بشروق طبيعية في الارض فتغمرها كلها وتتلف اطيانها ومساحتها نحو ٣٠٠ الف فدان وهي تساوي على اقل تقدير عشرين مليون جنيه · ولا ننسى اهمية جسور فرعي النيل وتقويتها حتى يحتملا كل فيضان مهما كان عالياً اولى من تعريض مديرية كاملة للتلف والاضمحلال